أقضيها فى رياض المطرية الغناء ، متنقلا بين الخضرة والزهور .

إن الحرية لا تقدر فى كل وقت وفى كل زمن !

كم كان يرهقنى فى ذلك الوقت حفظ أشعار لا قوننين ! فكنت أبغض ذلك الشاعر المسكين ، كما كنت أسخر منه ، لأنه يجعل الحيوانات تتكلم شعراً . . من رأيى ألا يُدرس لا قوننين وأمثاله فى مثل هذه السن التى لا يمكن فيها تقدير هذه النفائس الأدبية . .

ولكن ذهابى الى تلك المدرسة لم يدم طويلا ، فقد فصلت منها لكثرة انقطاعى ، فجيء لى حينئذ بفضل تعضيد والدى — بمدرسين فى المنزل ! فكان هذا بداية عهد سعيد ، لم يطل مع الأسف ، إذ نفينا بعده بأشهر قليلة الى اسبانيا !

* * *

وأذكر من ذلك العهد أيضاً حادثاً يدل على مقدار حقد الطفل وعلى روح الانتقام الكامنة فيه ، وذلك خلاف ماينسب اليه من طهر وبراءة .

اشترى والدى وقتئذ سيارة (توربيدو) ذات أربعة مقاعد ، وكنت أطمح الى أن أقودها مثل أخى وهو يكبرنى بسنوات قليلة ؛ ولكن السائق رفض لصغر سنى ، فرفعت الامر كعادتى الى والدى فلم ينصفنى على خلاف عادته ، بل أعطى الحق للسائق إشفاقاً منه على حياتى . . فأقسمت أن أثأر من السائق ، واليك كيف أتيحت لى الفرصة أن أحقق هذه الأمنية :

كانت هناك فى المطرية فى ذلك الوقت حانة تديرها أجنبية فاسدة ، يحذروننا منها . فاتفق ذات يوم أننى كنت عائداً فى المساء من محطة المطرية الى المنزل — مشياً على الأقدام — فاعترضنى فى الطريق جنديان بريطانيان يستفهمان عن عنوان تلك الحانة ، فأعطيتهما من فورى عنوان منزل السائق ! فكان ما قدّرته ، إذ عندما جاء السائق — الى منزلنا — فى صباح اليوم التالى ، كعادته ، كانت عينه اليمنى زرقاء اللون ، فقد تشاجر مع الجنديين البريطانيين ذياداً عن عرضه !

مصطفى صادق

من ذكريات لبنان

النفوس المغلقة

للأستاذ أديب عباسى

نهضت فى الصباح الباكر ودعوت حمالاً يحمل الحقائب إلى المحطة . وكنت قبلها قد هممت مرتين فى صباحين متواليين أن أسافر ، ولكننى كنت كل مرة أصل المحطة متأخراً عشر دقائق أو نحوها . وكنت بالطبع ألقى اللوم على أصحاب الفندق الذين يتعمدون التلكؤ عن تنبيهى صباحاً حتى يستنزفوا البقية الباقية من دراهمى ! والحقيقة التى لامراء فيها أن أصحاب الفندق لم يهملوا تنبيهى فى الوقت الذى سألتهم أن ينبهونى فيه ، ولكنها الرغبة الكامنة للبقاء فى هذا البلد الجميل — لبنان — كانت كل مرة تتغلب على الارادة الشاعرة فتغمض العينين بعد انفتاح ، وتضرب على الأذنين بعد انتباه ، وتهوم للشعور فيغفو بعد صحو ، ويغيب بعد حضور .

وكنت بعد أن أبلغ المحطة وأحملق فى القطار الذاهب فى حنق مكذوب أعود أرضى نفساً وأوفر بشراً مما لو كنت لحقت بهذا القطار — قطار لبنان العجيب — ليحملنى بين أنفاسه الفاسدة فى أنفاقه المتعددة ، وسيره التخلع البطىء ، ويلفظنى بعد مسيرة سبع ساعات على حال شر من الحال التى خرج عليه بولتان بعد ضيافة ثلاثة أيام قضاها فى بطن الحوت فى غير رحب ولا سعة .

وسمعت ، وأنا لا أزال فى الطريق ، منادياً ينادى : يا أفندى ، تفضل ! وأدركت أننى أنا المقصود بهذا النداء . فاستدرت ونظرت وإذا شاب حسن البزة واقف بجانب سيارته البديعة وعينه الى ويده تشير إلى السيارة . ودنوت أسأله فى تلكؤ متكلف ماذا يريد ، فأجابنى متلطفاً : أوتوموبيل جميل . وخير لك أن تسير فيه من أن تسير فى القطار .

وبعد أن استنزف بلاغته فى صرفى عن السفر فى القطار قال إننى لا آخذ منك إلا مثل ما آخذه من كل راكب . وذكر مبلغاً هو

ضعف مايؤخذ عادة أجراً على مثل هذه المسافة . وعندها أدركت أني ألبس سدارة ، ومن هنا سيأتيني الخطر في هذه الصفقة ، وبادرت أصلح الموقف على قدر ما يمكنني الاصلاح وقلت : لتعلم أن من غير العراقيين من يحب أن يلبس السدارة (واخواننا العراقيون — شاهم الله — يمشون ، حيثما حلوا ، موجة من الطمع في نفوس الساقة والباعة . على أن السدارة من ناحية أخرى «حماية» وصاحبها لا يرزأ إلا في نقوده . وفيما عدا ذلك فهو من نفوس القوم حيث تشاء الكرامة ويسمو الآباء والعزة) . وبعد مساومة قصيرة رضي صاحبنا بنصف القيمة التي ذكرها .

ووقفت السيارة أمام فندق جميل من فنادق (عاليه) . وبعد نفخة أو نفختين من بوق السيارة أقبل راكبان : رجل وامرأة يجري أمامهما طفلان صغيران .

والرجل ربعة القامة ، تخطى العقد الرابع من عمره ، جامد الملامح ، محني الظهر كأنه يحمل عبئاً ثقيلاً . أما الفتاة ففي ربيع الحياة ، في قامة هيفاء يخيل إليك أنها نخيلة وماهي بنخيلة ؛ ضحوك المبسم في وجه صبوح ، ونظرات تشع ذكاء ، يكسر منها قليلاً خفر طبيعي ووداعة ملازمة .

* * *

وانطلقت بنا السيارة في بطء ملحوظ . فكأن سائقها الذكي فهم من تلفتنا ونظراتنا الشائعة أننا نودع عزيزاً ونشيع غالياً ، فلا تحمد السرعة في هذه الحال .

وأطلت زوجة المزامل من نافذة السيارة ، وأخذت تجيل الطرف في كل ما يمكنها من اتجاه . والتفت إليها زوجها ونصحها معترضياً بأن تكف عن النظر والالتفات ، وإلا أصابها الدوار ؛ ثم إذا كان لابد من النظر فلتنظر إلى الأمام فقط .

والتفتت إليه الفتاة وقالت في وداعة ظاهرة : لست أرى أمامي إلا الزفت ؛ فهل تريد لي أن أغادر لبنان وليس ما يقع عليه ناظراي إلا الزفت ؟ إني أحب أن أشبع النظر من لبنان ، وأشبع الخاطر من فتنته قبل أن أغادره . فبادرها بقوله : ماذا في لبنان مما يفتنك ويتصباك ، ويجعلك تعرضين نفسك لخطر الدوار المؤكد ؟ عندها خاطبته في شيء من التبرم وكثير من الأعراء والرغبة في استثارته إلى مشاركتها في متعتها وقالت :

الله! ألا ترى هذه الجبال كيف تهاوت صخورها عند الحضيض، وكيف شخصت برؤوسها الممددة كأنها أعمال رصت صفاً وراء صف ؟ ثم ألا ترى إلى هذه الأخاديد والوهاد كيف تقطعها تقطيعاً بديعاً فتجعل منها مثل ما تجعل الشوارع من المدينة ؟ وإليك هذه الأشجار ، منها الجبار يقف ثابتاً لا تلويه ريح ولا يثنيه إعصار ، تستكين إلى ظلها هذه الشجيرات الصغيرات كأنها الحجلان تفيء الى جنح الأم وتلوذ بحنوها وتدنو قدر ما تدنو من قلبها الخفاق . ألا ترى في ذلك جمالاً ولا جلالاً ؟ ؟ وأي جمال وأية فتنة في هذه الجبال الجرداء الشامخة تقوم الى جانبها هذه التلال الوطيئة في هذا الحقل من شجر الأرز ، والسنديان يكلل رؤوسها ، وكأن كل ربوة من رباها دوحة جبارة واحدة أغصانها جذوع هذه الأشجار وأوراقها أغصانها ! ! ثم هذه الغيوم ومنها الذي أسف الى قعر الوادي واختلط بأهله اختلاط الألفة، وجاورهم جواراً زالت معه الكلفة ؛ ومنها الذي أبى إلا تصعيداً ومنافسة لأعلى هذه الجبال فيختم على رأسه إكليلاً من ذهب صباح مساء ، ومن فضة فيما بين ذلك ؛ ومنها الذي أبى إلا امعاناً في التحليق والتصعيد فوق ذلك ، فعلته من التيارات القوية مايجعله النسر من ريش الطائر ، وقد شد النسر عليه مخالبه وألهبه سعار الجوع ؟ ثم هذا البحر المسجى من ورائنا ، جاث عند ركبتي لبنان يبللها بزبده ويغسلها بموجه ، ويهمس في أذنه أن خل مكانك ، وتعال أبوئك الصدر بدل أن تكتفي مني بالزبد ، والزبد دائماً يذهب جفاء . وقديماً أغراه همس البحر السحري فتحرك وتناول خير ما أنبت ، وبث به جواري من الأرز ملء ضلوعها رجولة وقلوب كبيرة ... أو نسيت الباروك وماءه القمير؟ أنسيت ينابيع لبنان الثلجة وكيف كنا نتجرع ماءها قطرة قطرة لما كانت تفعل الجرع الكبيرة التوالية في الأسنان ؟ ثم هل نسيت البارحة وكيف أمطرتنا السماء وابلاً اضطرنا أن نتعطف المعاطف كأننا من العام في شهر آذار ؟ أمثل هذا يجتمع ويتيسر لغير لبنان من بقاع الدنيا ؟ أوه ! وماذا أقول في هذه المدن المنثورة المنورة ، وقد ألهبتها في الليل مشاعل الكهرباء ، فغدت نجوماً تومض على الأرض ، وتتحدى السماء فتحار أيهما أجمل وأروع : تلك التي تحتك، أم هذه التي فوقك ؟ وهذه البيوت المبثوثة هنا وهناك ، لاهي بالقرى المتراصة ولا هي بالصوامع المنعزلة ، ترف عليها وحولها أغصان

السنديان والصنوبر رفيفاً كأن يداً سحرية تروّح عليها ؛ وأخيراً هذه الخمائم البيضاء في عرض البحر تمد أجنحتها للريح تتلقى منه المدد ، فتسير باسم الله مجراها ومرساها ؟ أنسيت كل هذا لتسألني ماذا في لبنان من جمال وماذا أرى من فتنة ؟ ألا يفتنك بالله هذا التعانق الشديد بين السماء والماء والغبراء ، وهذه الألفة الفاتنة بين هذه العناصر حتى لكأن هذا ما خلق إلا ليكمل ذاك ، ولا ذاك إلا ليكمل هذا ؟ ؟ !

وبعد أن غمرت فتاتنا فتاها بهذا السيل الجارف من الأسئلة صمتت ترقب وتتأمل . وفتح صاحبنا فاه . . أوتدري بماذا أجاب عن كل ذلك ؟ قد تحسبه أضاف لوناً آخر الى هذه اللوحة التي رسمها خيال فتاتنا بهذه السرعة الطائرة ؟ لا ! إن شيئاً من هذا لم يحدث ، إذ لم يزد صاحبنا أن قال :

هذه الجبال قد رأيت مثلها وأعلى منها في البرازيل . والأشجار — كذلك — في البرازيل ، لفّة متداخة تكاد لا تدع لأحد منفذاً . والبحر رأيت أضعاف سعته في طريق الى أمريكا . والمطر كثير أيضاً في تلك البلاد . والباروك يُعدُّ « حنفية » ماء بالنسبة الى الأمزون .

عندها كدت أنشقُّ غيظاً ، وهممت والله أن أتناول شيئاً وأطرحه في وجه هذا الجلف الغليظ القلب ، الذي لا يرى إلا أن يقيس الجمال بالأميال ، ويكيله بالمكيال . وحاولت الفتاة محاولات يائسة أن تنبه من هذا الصخر مكامن الأحساس بالجمال ، فكانت — كما يقولون — كالصارخ في واد ، وكالنافخ في رماد .

* * *

وأدركت أخيراً مَن الفتاة ومَن فتاها : هي شعلة من الذكاء والثقافة العالية ، والاحساس العميق بالحياة ، والتفطن الى همس الجمال بله صوته . أما هذا الذي يجالسها فهو من هؤلاء الذين ذهبوا الى أميركا ورجعوا خلواً من كل شيء ، إلا المال ، فتقدموا بهذا الطعم المغري ، فاصطادوا خيرة الفتيات جمالاً وعلماً وذكاء .

وصاحبنا هذا — مع الأسف الشديد — ليس بالمثال النادر في الشرق ولا بالشاذ ، وإلا ما كنا نُعنى به ونلقي على القارئ الكريم بعرض صورته البغيضة ، إنما هو يمثل لنا طغمة من الناس في شرقنا كثيرة كثرة مفزعة حقاً ، لا تتفتح نفوسهم على جمال ، ولا تنبسط لفتنة ولا تنشط لمتعة من متع الفن . يعيش الواحد من هؤلاء في بقعة ركم الجمال فيها ركماً ، ولكنه يحيا — ان صح أنه يحيا — ويموت ، وكأن هذا الجمال لا يعنيه بحال من الأحوال ، وكأن هذه المفاتن لأناس من غير طينته ، وفي عالم غير عالمه ، وقد يصيب بعضهم من ينبه فيهم مراكز الجمال ، والتفطن إلى مواطن الملاحة فتتبدل النفوس غير النفوس وتنقلب حياتهم انقلاباً شديداً ، وتنفسح أمامهم متع الحياة انفساحاً يمتد مداه على قدر ما تكشّف لهم من مفاتن الطبيعة ومجالي الجمال ، إلا أن السواد الأعظم منهم يظلون على جمودهم وغضوب أنفسهم مهما حاولت أن تثير فيهم مكامن الاحساس بالجمال ، وتذوّق الفن . وإذا رأيتهم يستملحون أو يستظرفون فانما يفعلونها من طرف لسان ومجاراة ، خشية أن يرموا بتبلد الأحساس وعقم العاطفة ، ولسنا نعزو هذا إلى نقص طبيعي في الأحساس ، ونضوب معين العاطفة في الشرقيين ؛ إنما نعزوه متأكدين إلى نقص في التربية وتقصير في التوجيه . فمدارسنا قلما تعنى بتنبيه مواطن الأحساس بالجمال في الصغار ، وإذا فعلت ففي صورة سطحية ميكانيكية ، وهو تقصير يدفع الشرقيون اليوم ثمنه غالياً — يدفعون ثمنه ضعفاً في الوطنية ، وجموداً عن التضحية . وهل ترجو خيراً ممن لا يرى في جبال بلاده ولا في سهولها ، ولا في حزونها ولا في أنهارها ، ولا في ينابيعها ولا في أشجارها ، ولا في أطيارها ، ولا في سمائها ، ولا في مائها سحراً ولا فتنة يربطانه بها بعرى من الشوق والهيام لا تنفصم ولا تهى ؟ ؟ هذا الأوربي إجمالاً ، والانكليزي ، على التخصيص ، أنظر كيف ينقل ذكرى جباله وأنهاره ، وقراه ودساكره ، ووديانه وينابيعه ومدنه إلى أميركا وأفريقيا وأوستراليا وغيرها من قارات العالم ؛ لم يستطيعوا أن ينقلوا هذه الأشياء العزيزة عليهم بالذات فنقلوا ذكراها المحببة ، فظلّت تربطهم بها رابطة من الشوق والهيام يؤكدها التذكير ويديمها النوى .

* * *

ولنعد إلى فتاتنا . فقد شاقني حقاً أن أتابع هذه الدراما الصغيرة إلى النهاية ، أبت الفتاة إلا تطلعاً وإسرافاً في التطلع ، برغم نصائح زوجها الغالية ، فكأن حديثها السابق قد أذكى شعورها

وفتح لها أفقاً أوسع للتفطن والاستشراف ، وقد آلمني حقاً أمر هذه الفتاة . فهي تشعر شعوراً عميقاً بهذا الجمال الغزير وتأبى إلا أن تشرك غيرها معها في هذا الشعور ، وهي نزعة طبيعية ملحوظة في جميع الناس . فليس أحد يشعر بجمال الفن سواء أكان طبيعياً أم صناعياً ، إلا يرغب أن يرى من يساهمه فيه الأحساس وينشاطره المتعة ، ولعلّ متع الفن هي المتع الوحيدة التي لا يخشى المرء فيها الشركة ، بل هي المتع الوحيدة التي لا تطيب نفسه ولا يحسُّ بها أرهف الاحساس وأحده ، إلا إذا كان من يشاركه . فكأن كثرة الناظرين أو السامعين لآيات الفن ، المرايا تتقابل حول الصورة فتضاعف الأشباح وتزيد الصور .

* * *

ويئس صاحبنا من صرف الفتاة عما تريد من النظر والتلفُّت ، فراح يتلهى بالصغيرين ويناغيهما ، وانتهى به الحديث معهما والمناغاة إلى صيغته بعينها جعلها لازمة حديثه وهي : يا بابا ! صباح الخير يا بابا ! وراح يرددها ويدهورها في حنجرته طوال الطريق . وخيل إلى أن الرجل لن يكف عن ترديدها ولو أمسى المساء ، وضاقت به الزوجة الوديعة ذرعاً (وللصبر حد) وطلبت اليه متوسلة أن يكف عن الحديث ، أو يغير هذه العبارة التي يوشك أن يتبرم بها الصغيرين ! وصمت قليلاً . تخيل إلينا أننا قد ارتحنا بهذا القليل من الجرأة من هذه القدر المقرقرة . غير أنه ما عتّم حتى عاد وكأن عشرين ضفدعاً تنق في حلقه ! ولعله خشي إذ صمت أن نحسبه ذلّ وخنس . فضاعف الصخب وزاد الجلب ، وقلت : ليتك يافتاتي لم تحاولي إسكاته ، فقد زدته ضراماً على ضرام . على أنه لم يمض حتى فاجأه أحد الصغيرين بقيء شديد ملأ صدره وانحدر يسيل إلى أسفل ، وهنا عبس الأب وانقطع عن المناغاة ، واضطر أن يشتغل باماطة ما علق بصدره من هذا السائل البارك ، وقلت في نفسي : عوفيتَ معدة ياصغيري ؛ فقد أبرأت سقمنا ، وجازيته جزاء وفاقا ، وليت معدتك أوسع قليلاً فقد نحتاج إليها مرة أخرى .

* * *

وبلغت السيارة دمشق . وغادرتها وفي القلب ما فيه من غصة وألم بهذا الدهر الأهوج الذي يجمع بين الأنسان وشبه الأنسان .

أديب عباسي

في الأدب الرواني

١٠ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة في مهد الفرد

أول ما نال الملهاة الأغريقية من العناية كان في صقلية . وكانت يومئذ مقصورة على تصوير العادات العامة دون تلميح إلى السياسة . وكان عميدها في هذا القطر إيكارم (٤٥٠ ق م) . فلما انتقلت إلى أثينا تقلب بها الزمن . فمر بها على أدوار ثلاثة : دور الملهاة القديمة ، ودور الملهاة الوسطى ، ودور الملهاة الحديثة . فالقديمة تمتاز بكثرة النقد الشخصي الصريح ، فتسمي الأشخاص وتعين الحوادث . وكانت تستمد موضوعاتها من الوقائع اليومية . وتتمتع بالحرية المطلقة في مهاجمة العظماء . والوسطى ظلت كتلك تهاجم أشخاصاً معينين ، ولكنها عفت عن ذكر أسمائهم ، وأخذت تمثل أنماطاً من الناس وصوراً من الأخلاق . وأما الحديثة فلم تطلب الجاذبية والتشويق في الحوادث اليومية والأهاجي الشخصية ، وإنما طلبتهما في تعقيد العمل الروائي ، وتصوير الأخلاق العامة . وأشهر من عالج الملهاة القديمة أرسطفان (٤٥٠ — ٣٨٧ ق م) وقد كان معروفاً بصفاء الأسلوب ، ومرارة الهزل ، وشدة الوطنية . غير أن مناظره كانت خليعة فاحشة . أما الملهاة الوسطى والحديثة فلم يؤثر منهما غير قطع منثورة مشتتة ، حتى سنة ١٩٠٧ ، فعثروا على ملهاة تكاد تكون كاملة ، وهي ملهاة التحكيم لمينائدر .

وكان للملهاة عند الرومان من العناية والحظ ما لم يكن للمأساة ، فقد نبغ فيها كثير منهم ، أشهرهم (بلوت ٢٢٧ — ١٨٣ ق م) وقد سار على نهج إيكارم ، إلا أنه عرف بسرعة العمل الروائي ، ونشاط الحوار ، دون تصوير للعادة ، ولا تحقيق للخلق . ثم (تيرانس) (١٩٢ — ١٥٩ ق م) ، وقد قلد مينائدر ، وامتاز